المحاضرة رقم: 5

قضية الوحدة والكثرة في القصيدة العربية القديمة

تُعدّ قضية الوحدة والكثرة من القضايا النقدية المحورية في دراسة بنية القصيدة العربية القديمة. فقد شغلت هذه المسألة النقاد القدامى والمحدثين على حدّ سواء، لأنها تتصل بطبيعة تكوين القصيدة الجاهلية وبنائها الداخلي، ومدى ترابط أجزائها. وفي هذه المحاضرة سنحاول تتبع جذور القضية، وشرح أبعادها، وبيان مواقف النقاد منها، مع تقديم أمثلة تطبيقية من الشعر العربي القديم.

أولاً: مفهوم الوحدة والكثرة

1- مفهوم الوحدة

يقصد بالوحدة تماسك أجزاء القصيدة موضوعياً وفنياً، بحيث تبدو كأنها كلٌّ واحد لا يمكن تجزئته بسهولة. وتتجلى الوحدة في:

- وحدة الموضوع
- وحدة الجو النفسي
- وحدة البناء الفني والإيقاعي

2- مفهوم الكثرة

الكثرة تعني تنوّع موضوعات القصيدة وتعدّدها، بحيث ينتقل الشاعر من غرض إلى آخر دون رابط موضوعي واضح. وهذا واضح في أغلب القصائد الجاهلية ذات البنية

التقليدية.

ثانياً: جذور القضية في الشعر الجاهلي

نشأت القضية نتيجة دراسة بنية القصيدة الجاهلية ذات النظام الثلاثي الشائع:

- الطلل

- الرحلة

- المدح أو الغرض الأساسي

هذا البناء المتعدّد الأجزاء جعل الشعراء ينتقلون من موضوع إلى آخر انتقالاً يبدو للدارس الحديث غير مترابط. ولكنّ هذا التنقل كان له وظائف فنية ونفسية واضحة عند العرب تتمثل في:

- استدعاء الذكريات لتأجيج العاطفة.

- تقديم الشاعر نفسه عبر الرحلة.

- الانتقال التدريجي إلى الغرض الأساس بطريقة مقنعة.

ثالثاً: موقف النقاد القدامى

لم يكن النقاد العرب القدامى معترضين على «الكثرة» في القصيدة؛ بل رأوها ميزة فنية تبرز براعة الشاعر، مثل:

- **ابن قتيبة** الذي اعتبر تقسيم القصيدة أمراً طبيعياً يعبّر عن رحلة تطور شعوري.
- **الجاحظ** الذي رأى أن الانتقال بين الموضوعات دليل اقتدار لغوي وفني.

وكان معيارهم في جودة القصيدة حسن الانتقال و«براعة الاستهلال» و«تمام المعاني»، لا وحدة الموضوع بالمعنى الحديث.

رابعاً: موقف النقاد المحدثين

مع تأثير النقد الغربي ظهر اتجاه يطالب بـ«الوحدة العضوية» في القصيدة. **رأى طه حسين والعقاد** وغيرهما أن القصيدة القديمة تفتقر إلى الوحدة الموضوعية. في حين دافع آخرون، مثل **شوقي ضيف وناصر الدين الأسد**، عن القصيدة التقليدية معتبرين أن تعدد الموضوعات لا ينفي وجود وحدة شعورية وفنية.

الوحدة العضوية مقابل الوحدة الشعورية

الوحدة العضوية: كل جزء يخدم الغرض المركزي.

الوحدة الشعورية: الأجزاء متعدّدة لكن يجمعها جوّ نفسي واحد.

الأغلب يرى اليوم أن القصيدة العربية القديمة تمتلك وحدة شعورية وإن كانت تفتقر إلى الوحدة العضوية بمعايير الشعر الحديث.

خامساً: تطبيقات من الشعر العربي القديم

معلقة امرئ القيس:

تبدأ بالطلل ثم الغزل ثم وصف الفرس والصيد، لكن يجمعها:

- حضور الشاعر الشخصي.
- الانفعال الوجداني.
- الحركة الداخلية من الحزن إلى القوة.

معلقة زهير بن أبي سلمى:

على الرغم من تنوع موضوعاتها (الحكمة – وصف الحرب – المدح)، إلا أن القصيدة يسودها:

- جوّ التفكر
- النزعة الأخلاقية
- لغة هادئة موحدة الإيقاع

طرفة بن العبد:

- يجمع الشاعر بين اللهو والفخر والهجاء، لكن الوحدة تتجسد في:
- شخصية الشاعر المتمردة
- النظرة الساخرة للحياة

سادساً: تفسير التنوع في بنية القصيدة القديمة

- العوامل التي جعلت القصيدة تميل إلى الكثرة:
- الطبيعة الشفوية للشعر
- تعدد وظائف القصيدة (إخبار، فخر، حكمة، مدح)
- ارتباط القصيدة بالرحلة البدوية المتعددة المشاهد

هذه العوامل تبرّر بنية القصيدة وتثبت أنها ليست عشوائية، بل وليدة ثقافة محددة.

خاتمة

إن قضية الوحدة والكثرة في القصيدة العربية القديمة ليست مجرد مسألة فنية، بل هي نافذة على رؤية العربي للوجود وتشكّل النص الشعري في بيئته. وإذ يرى النقاد

المحدثون أن القصيدة القديمة تفتقر للوحدة العضوية، فإنها تمتلك– بلا شك – وحدة شعورية متماسكة، تتبع من صوت الشاعر وتجربته وملامح ثقافته. وبذلك تبقى القصيدة القديمة نموذجاً فنياً فريداً يحمل ملامح عصره، ولا يمكن مقاربته بمعايير العصر الحديث دون مراعاة خصوصيته الحضارية والفنية.